الشعر في مشاعر الحج

إعداد
أ.د. عبدالرزاق الحاج حسين
أستاذ الأدب العربي بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن

الملخص

لقد ألهب موسم الحج مشاعر الشعراء منذ العصور القديمة، وحتى عصرنا الحاضر، ففاضت قرائحهم تعبر عن شوقها للمكان ، وعن توقها لأداء الفريضة، وفي هذا البحث الذي يتحدث عن أقدس مكان، وأروع زمان هو زمان الحج، ومع أزكى النفحاتِ الشِّعْرِيَّةِ، تمضي مشاعر الشعراء تحملُ ندى القلوبِ المؤمنةِ، في رحلةِ الحَجِّ الميمونةِ، بادئينَ بجلالِ المكانِ، وقُدُسِيَّةِ الزَّمانِ، فمنْ إشراقِ شمسِ الشوقِ في القلوبِ إلى بَدْءِ التلبيةِ، ومروراً بكلِّ المشاعرِ المباركةِ، والشعائرِ، وحتى عيدِ الأضحى وأيامِ التَّشريقِ، وطوافِ الوداعِ في ختامِ الرحلةِ القدسيةِ التي نُلقي عندَها عصا التسيار.

وقد قدَّمت بمقدمة بينت فيها الشوق والحنين لمكة المكرمة ، ثمَّ أبنتُ عن التعبير الشعري في هذا الموضوع من خلال خمس نقاط:

الشعر يحج:

كيف يحجُّ الشعرُ ؟ سؤالٌ تجيبُ عليهِ قلوبُ الشعراء التي تهفو لزيارةِ بيتِ اللهِ الحرامِ ، وهي ترى أفواجَ الحُجّاجِ المغادرةَ لأداءِ الفريضةِ ، فينطلقُ الشِّعرُ مُعَبِّراً عنْ هذه الرغبةِ الجامحةِ ويصف حاله وحال من لم يصاحب الحجاجَ في وفودِهم على اللهِ وحالَ اؤلئك الذين فازوا، ويتحسَّرُ على ما فاتَهُ، كما يقول أحد الشعراء:

تخلفنا عن البلدِ الحرامِ ... وما فيهِ من النعمِ الجسامِ

وفازَ بفضلهِ إخوانُ صدقٍ ... لنا نهضوا مع الوفدِ الكرامِ

وكلَّما اقترب موسمُ الحج، دقّتِ القلوب الوامقةُ، ودمعتِ العيونُ المحبّةُ، وهاجت الذكرى الدفينةُ، وابن مكة المتشوق لها أبداً يحييها على البعد، ويرسلُ تحيتَهُ مع سائقِ الأظعانِ، يقولُ ابن معصوم:

يا حادي الظعنِ إنْ جُزتَ المواقيتا
فحيِّ مَنْ بِمِنىً والخيفِ حُيِّيتا
وسلْ بجمعٍ أَجَمْعُ الشَّمْلِ مُلتئمٌ
أمْ غالَهُ الدَّهرُ تفريقاً وتشتيتا
والثمْ ثرى ذلك الوادي وحُطَّ بهِ
عنِ الرِّحالِ تنلْ يا صاحِ ما شيتا

عهـــــــدي بـــــــه وثـــــــراهُ فـــــــائحٌ عبـــــــقٌ

كالمســـــــــكِ فتَّتـــــــــهُ الـــــــــداريُّ تفتيتـــــــــا

والـــــــدرُّ مـــــــا زالَ مـــــــن حصـــــــبائهِ خجـــــــلاً

كـــــــأنَّ حصـــــــباءَهُ كانـــــــت يواقيتـــــــا[1]

وصف المشاعر والحنين إليها :

ذكر المشاعر والحديث عنها يرد كثيراً في الشعر القديم والحديث، فهذا مضاض الجرهمي يذكرها قائلاً:

وســـــــحَّتْ دمـــــــوعُ العـــــــينِ تبكـــــــي لبلـــــــدةٍ

بهـــــــا حَـــــــرَمٌ أَمْـــــــنٌ وفيهـــــــا المشـــــــاعرُ

ويقول أبو طالب:

أرضٌ بهـــا البيـــت المحـــرّمُ قبلـــةٌ للعـــالمين لـــه المســـاجد تعـــدلُ

وبهـــا المشـــاعرُ والمناســـكُ كلُّهـــا وإلى فضـــيلتِها البريـــةُ ترحـــلُ

ومن الشعراء المحدثين من وردت في شعره كقول حسين عرب:

والمحاريـــــبُ والمشـــــاعرُ كـــــونٌ نـــــاطقٌ بـــــالتقى وبالإيمـــــانِ

ويقول الغزاوي:

إنَّ المشـــــاعرَ مـــــا ازدهـــــتْ إلاّ لأ نَّ بهـــــا الفـــــرائضَ والحـــــدودَ تُقـــــامُ

وصف موكب الحجيج ووداعه :

يوضح الشعر تنقلات الحجاج ما بين المشاعر، فمن الطواف، ولثم الحجر، إلى موقف إبراهيم عليه السلام، ثم السعي بين الصفا والمروة، والوقوف عند المشعر الحرام، وعرفة، ثم تجمعهم في المزدلفة ومنى، ثم رمي الجمرات:

ويقفُ الشعر متأهباً في وداعِ ركبِ الحجيجِ العازمين على أداءِ فريضتِهم، ها هم على البُعْدِ وقدْ استعدّوا للتَّوجُهِ لأرضِ الحجازِ المقدَّسةِ، وتجمَّعتِ القوافلُ منْ كلِّ حَدَبِ وصوبٍ، ووقف أهلوهم يودّعونَهم، ودموعُ الشوقِ تنهمرُ من عيونهم، وأُمنياتُ التَّوقِ إلى الحرمِ الشريف تنطقُ من وجوهِهم، وها هي نغماتُ الشعرُ تعلو مع نبضاتِ القلوبِ، وتُوقِّعُ أعذبَ ألحانِ الوداعِ.

إنَّه شكلٌ آخرُ من أشكال الاستدعاءِ، استدعاءِ الحنينِ والشوق، إذ يغتنمُ الشاعرُ فرصةَ وداعِهِ حُجاجِ بيتِ الله، فيقفُ ليوصيَهم بكلِّ ما يتمنّى فعْلَهُ، كما في هذه الوصيةِ لابنِ دقيقِ العيدِ، حيث يقولُ من قصيدةٍ طويلةٍ في مدحِ سيدِ الورى عليه أفضلُ الصلاةِ وأزكى التسليم:

يـــــا ســـــائراً نحـــــوَ الحجـــــازِ مشـــــمِّراً

وتـــــدرّعِ الصـــــبرَ الجميـــــلَ ولا تكـــــنْ

اقصـــــدْ إلى حيـــــثُ المكـــــارمُ والنّـــــدى

أجهـــــــــدْ فـــــــــديتُكَ في المســـــــــير وفي السُّـــــــــرى
في مطلـــــــــبِ المجـــــــــدِ الأثيـــــــــلِ مقصِّـــــــــرا
يلقـــــــــاكَ وجهُهُمـــــــــا مُضـــــــــيئاً مُقمـــــــــرا

التهنئة بقدوم الحجاج:

ونأتي إلى ختام رحلة الحاج، حيث الاستعداد للعودة إلى الديار، الكل مشغول بتجهيز نفسه وراحلته ومن أوائل من صوروا لنا مواكب الحجيج في استعدادها للرحيل، وفي غدوها ورواحها، وحركتها الدؤوبة، وسير نواضحها وإبلها، وامتلاء الوديان بجموعهم، كان كثير عزة الذي نقل لنا صورة حية لهذا الجمع المبارك، يقول:

ولَّـــا أنْ قضـــينا مِـــنْ مِنـــىً كـــلَّ حاجـــةٍ ومسَّـــحَ بالأركـــانِ مَـــنْ هـــو ماســـحُ
وشُـــدَّت علـــى حـــدب المطايـــا رحالُنـــا ولم ينظـــرِ الغـــادي الـــذي هـــوَ رائـــحُ
أخـــذنا بـــأطراف الأحاديـــث بيننـــا وســـالت بأعنـــاق المطـــيِّ الأبـــاطحُ

ومثلما وقف المودعون يُحَمِّلونَ الركبَ المرتحلَ شوقَهُم ودموعَهُم ودعاءَهُم، استعدَّ المستقبلون لتهنئتهم بما منَّ الله تعالى عليهم مِن أداءِ الفريضة ، وسلامةِ العودةِ إلى الديار ، ومشاهدةِ من شاهدوا البيت الحرام .

موقف الشعراء من العيد :

العيدُ عندَ الشُّعراءِ يُعبِّرُ عنْ تجاربَ فذَّةٍ، طافحةٍ بالألم، مفعمةٍ بالأملِ، مترعةٍ بالشَّجى، مبتهجةٍ بالفرح .

فالعيدُ حالةٌ منَ التَّجاربِ الشعريةِ والشعوريةِ، فريدةٌ في عطائِها وتنوعِها، مبدعةٌ في تشكيلِها وتصويرِها .

والمتتبِّعُ لقصائدِ العيدِ عندَ الشُّعراءِ يجدها تمرُّ في معابرَ ثلاثةٍ، هي:

أولاً : حالةُ الابتهاجِ والفرحِ، وتصويرُ العيدِ بالصورةِ المشرقةِ، العبقة بالسعادةِ والسرور، الممتلئةِ بالبهجة والغبطةِ.

ثانياً: التهنئةُ بالعيدِ ، واتخاذُ قصائدِ المدحِ العيدَ متَّكئاً لمدح الخلفاءِ والملوكِ والسلاطين والأمراءِ والقادةِ والأعيانِ .

ثالثاً: المقابلة بينَ حال الشاعر النفسيةِ البائسة ،وما يرتبطُ بها من خصوصٍ أو عمومٍ، وإلقاء تلك الحالة أو انسحابُها على العيدِ.

فالعيدُ عندَ هذه الطائفةِ من الشعراءِ يستثيرُ فيهم كوامنَ ذكرياتهم المُرَّةِ، أو يصورُ حالَهُم المعذَّبَ، وواقعَهُمُ النَّكدَ، ووضعَهُمُ المزري.

وفي النقطة الأخيرة وقفنا عند معاني الحج و الدعاء والابتهال في شعر الحج :

الدعاءُ مخُّ العبادة، وسنَّةُ رسول اللهِ صلّى الله عليه وسلَّم الإلحاحُ في الدعاء، وشدَّةُ التضرُّعِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في طلب العفو والغفران، وعن النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنه قال: **(خيرُ الدعاءِ يومُ عرفة، وخيرُ ما قلتُ أنا والنَّبيون من قبلي: لا إلهَ إلاّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير)**

وإذا كانت ألسنةُ الحجيج تلهجُ بالدعاءِ، وتجأرُ وتتوسّلُ بكلِّ لغاتِ الأرض، فإنَّ لغة الشعر الحميميةَ هي الأخرى حاضرة، تصبُّ هذا الدعاء في إيقاعاتها الخلاّبة، وتوقِّعهُ على أنغامٍ وأوتارِ قلوبِ المحبّين، ومن خلال قراءةِ شعرِ الشعراءِ الداعين، وسماعِ أصواتِ المبتهلين، تجدُ أدعيتَهم متنوعةً، فبعضها يتوجهُ إلى التوبةِ وطلبِ العفوِ والغفران، وبعضُها يدعو لنوالِ الآخرة وسؤال الجنة، وأدعيةٌ أخرى تتوجه للدنيا في طلب شفاءٍ من مرضٍ، أو كبتِ عدوٍّ، أو نيلِ مُراد. وقد استغرقت الشهادات الشعرية عصور الشعر المختلفة، وأبانت عن وحدة القلوب، واستمرارية التشوق واللهفة للوصول إلى بيت الله الحرام.